تاريخ الارسال : 2020/06/07 تاريخ القبول : 2020/06/01 تاريخ النشر 2020/12/25

طقوس وعادات الموت في الموروث الشعبي بالمغرب الأقصى.

د. الحسين ريوش
أستاذ مادة التاريخ.
وجدة . المملكة المغربية.

الملخص

إن الموت شبح مخيف يتهدد الفرد باستمرار ويلازم مخياله، ولذلك ترك بصماته واضحة في الذاكرة الشعبية المغربية التي عبرت عنه بأمثال وحكم وحِجاجٍ، وحتى بأغاني وكلمات الزجل وبحكايات شعبية مخيفة وهزلية تعبر عن تصوراتهم حول قضاياهم اليومية.

ورغم أن الطقوس والعادات تختلف باختلاف المناسبات، وتخضع لحتمية الزمان والمكان والظرفية الطبيعية. فإن كثيرا منها تمردت على حيزها الجغرافي واختصرت الفارق الزمني وحافظت على استمراريتها وظلت تجر معها موروثا شعبيا مغربيا وإنسانيا يعتبر من المصادر الدفينة لدراسة التاريخ المنسي المغربي، والإنساني، بمحاسنه ومساوئه.

إن طقوس وعادات الموت عملت على ترسيخ مظاهر التكافل الاجتماعي وتمتين الترابط بين الأسر من جهة وبين أفراد المجتمع المغربي بصفة عامة منذ القدم مما قلص من التفاوتات التي ميزت المجتمع المغربي ووفر أحد عوامل الاستقرار الاجتماعي والتقدم الاقتصادي.

الكلمات المفتاحية : الموت . الكفن . العزاء . القبر . السؤال.

Abstract

The death is a frightening specter that constantly threatens the individual and accompanies his imagination, so he left his fingerprints clear in the Moroccan popular memory, which he expressed in parables, judgment and late, and even the songs and words of al-Zajal and frightening and comic folk tales expressing their perceptions about their daily issues.

Although rituals and customs vary according to events, subject to the inevitability of time, space and natural circumstance. Many of them have rebelled against their geographical space, shortened the temporal gap, maintained their continuity and continued to drag with them a popular Moroccan and human heritage that is considered to be one of the hidden sources of the study of forgotten Moroccan and human history with its pros and cons.

The rites and customs of death have consolidated the manifestations of social solidarity and strengthened the bond between families on the one hand and members of Moroccan society in general since ancient times, reducing the inequalities that characterized Moroccan society and provided one of the factors of social stability and economic progress.

Keywords :

The death – Shroud – Solace – Grave – The question.

تمهيد

رغم أن موضوع الموت شغل صفحات العديد من المصادر عبر تاريخ المغرب، ونال اهتمام الكثير من الباحثين، بعدة منهجيات وفي فترات زمنية مختلفة، إلا أننا ارتأينا أن نطل عليه من جديد، ومن زاوية أخرى تستهدف استخلاص المسكوت عنه أو المستتر من طقوسه وعاداته اعتمادا على ما تحتفظ به بعض المصادر ومن خلال استقراء الذاكرة الشعبية المغربية.

ورغم أن الطقوس والعادات تختلف باختلاف المناسبات، وتخضع لحتمية الزمان والمكان والظرفية الطبيعية. فإن كثيرا منها تمردت على حيزها الجغرافي واختصرت الفارق الزمني وحافظت على استمراريتها وظلت تجر معها موروثا شعبيا مغربيا وإنسانيا يعتبر من المصادر الدفينة لدراسة التاريخ المنسي المغربي بمحاسنه ومساوئه.

لقد ترك الموت بصماته واضحة في الذاكرة الشعبية المغربية وعبرت عنه بأمثال وحكم، وحتى بأغاني وكلمات الزجل وبحكايات شعبية مُخيفة وهزلية تعكس مشاعر وتصورات السكان حول قضاياهم اليومية المختلفة. فماهي أهم طقوس وعادات الموت في الموروث الشعبي المغربي؟

1- طقوس وعادات تجهيز الميت: الصيحة و"النّواح" والوداع، والمدير والتزكية، والعهد أو الرقعة.

تنطلق طقوس تجهيز الميت عند دخوله مرحلة الاحتضار حيث يجتمع الرجال والنساء من أقاربه وجيرانه لمؤازرته عملا بالمثل الشعبي القائل: "***الموت وسط لحْبابْ نْزاهة***" مع إظهار بعض النسوة

لمحاسنهن، ومنهن من "تبكي بالصراخ والنوح"[1]. ويتم توجيه المحتضر إلى القبلة[2]. وبعد التأكد من الوفاة "يأخذ *"القابل" أو "القابلة"* عصّابة [عمامة] ويجعلها تحت ذقنه ويشدها على رأسه لكي لا يبقى فمه مفتوحا وتدخل منه الهوام والماء لجوفه ثم تخرج أثناء غسله فتلوث كفنه"[3].

في الوقت نفسه تبتدئ ملاحم التكافل الأسري والاجتماعي بحيث يتكلف بعض الأشخاص بحفر القبر والبعض بإحضار المغسل والنعش وبإخبار الغسّال وشراء الحنوط، والبعض الآخر ينشغل بالتحضير لكل متطلبات إحياء الليلة الأولى، بينما يتوجه *"العلّام"* إلى المسجد ويصعد إلى المنار للإعلان عن الوفاة والتذكير بتاريخ ومكان الدفن[4] كما كان معهودا في "زعقات المؤذنين وعوائدهم [في] ذلك [...] النعي المنهى عنه"[5]، ويجوب *"البرّاح"* الأزقة والدروب بالمدينة معلنا وفاة فلان ومخبرا بمنزل الجنازة. وفي البوادي، حيث الخيام المنعزلة، يتم إشعال مشاعيل من الحلفاء والتلويح بها إذا كانت الوفاة ليلا، ويُبعث *"الرّقّاصُ"* (العلام) إلى الأقارب والدواوير القريبة، بينما يتأخر نبأ الوفاة إلى غاية يوم السوق الأسبوعي أو إلى ما بعد ذلك بالنسبة للدواوير البعيدة.

هذه المظاهر من التكافل هي من العوامل التي رسخت الحياة الجماعية في المجتمع المغربي كما يظهر من هذين المثلين الشعبيين *:"اُلفرْحْ بالأحْبابْ والقرْحْ بالأحْبابْ"* **أي** يفرحون لفرحك ويحزنون لحزنك، وأيضا: *"مُتْ مْع الناس ولا تْعيش وحدك"* .

وفي انتظار وصول المعزّين. تنطلق مراسيم غسل وتكفين الميت حيث انتشرت عادات كثيرة من بينها *"الصيحة العظيمة"* التي تطلقها النساء عند وصول *"الغاسلة"* (المكلفة بغسل الميتة) حيث يستقبلنها

"بالشتم والضرب وهي على علم من ذلك بالعادة فتأخذ حذرها وتتخبأ [تختبئ] منهن ويقلن لها يا وجه الشؤم فتقول هي لهن جوابا إنما رأيت الشؤم عندكن ..."[6].

وبعد الاتفاق مع "***الغسّال***" والحمّالين على ثمن أتعابهم. يتم غسل الميت في مكان منعزل عن أنظار الحاضرين، وفي بعض الأقاليم كان يُغسل "من غير سترة في ملأ من الناس، وهم يشاهدونه وينظرون إلى جسده"[7]، وهي عادة تعكس المثل الشعبي القائل: "***ما عنْد الميت ما يْقول قُدّامْ غسّالُه***" ، أي أن الميت لا يمكنه أن يحرك ساكنا أمام ما يفعله به الغسّال، وأيضا :"***ملّي تَيْموتْ الميت، كَيطْوَلُو رَجْليه وكَتتْعرّى سَفّاحْتُهُ***". "سفّاحته" لهجة عامية معناها عورته.

وبما أن بعض الغسّالين كانوا يأخذون ما يجدونه على الميت من الثياب. فإن أهله كانوا لا يتركون عليه إلا السترة المسماة "***شمختانية***" وهي عبارة عن ثوب رقيق إذا ابتل بالماء تُكْشفُ منه عورة الميت[8]. وقد يكون هذا من بين الأسباب التي أدت إلى تخصيص أجرة للغسّال والتي لا يزال العمل بها إلى يومنا هذا.

وجرت العادة أن يجمع أهل الميت الماء الذي يُغْسل به ميتهم تحت **دكة الغسل** ثم يخلطونه بالتراب ويرمونه خارج البيت[9]، أما في الخيمة فيتم حفر حُفرة صغيرة يُجمع فيها الماء وتُردم[10].

وبموازاة مع غسل الميت وتكفينه تشرع النساء في "***الزْغى أو الصراخ Polyphonique***" على المتوفي، والرجال في زاوية وأقبابهم [قباؤهم] تغطي وجوههم، مع ممارسة بعض الطقوس المنهى عنها شرعا[11]

كثقب النساء لوجوههن بالأظافر، ونشر الشعر أو حلقه والدعاء بالويل والثبور، وتعميم الرؤوس بالحبال ووضع الروث والطين فوقها، كما يظهر من أرجوزة الهبطي حول جبال غمارة، والتي جاء فيها [12]:

ترى نساء أولئك الفجّـار *** في حالة كحال أهل النـار

يثْقبْن خدهن بالأظفـارِ *** تسخُّطا على الإله البـار

كَحَلْقِهِنّ ما لهن من شَعَـرْ *** لا يرتضي لفعلهنّ من كَفَـرْ

يرفعن صوتهنّ بالـحُدورْ *** وصحْن عند ذاك بالثُّبـورْ

بالحبْل عمّمن الرؤوس ثـمّ *** لطخْنها بطينة من الحـمـا

كجعلهن الرّوْث فوْق الرأس *** تسخُّطا بحكم ربّ النـاس.

ويقمن كذلك بتسويد الوجوه وبعض أجسادهن، وارتداء الأزرق أو السواد أو البياض، وخرق قعود القدور السُّود وجعلها في أعناقهن، وسكب التراب على الرؤوس، وتلطيخ البيوت بالسواد، وتعليق السلاسل في الأعناق- "تيمنها" بسلاسل وأغلال أهل النار- والمشي حافيات[13].

وكانت طقوس البكاء والحزن تخضع لإيقاعات الضرب على *"الطّارات"* (الدفوف)[14]، كما كانت متشابهة إلى حد بعيد بين البوادي والحواضر مع بعض الاختلافات بين العامة وفئات الأعيان. فقد ذكر الوزان أن النساء، في مدينة فاس مثلا، كُنّ يجتمعن في دار الجنازة وهن مرتديات الخشن من اللباس، ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور، ثم يستأجرن عددا من ***"المتغنّجين"*** (الغنائيين) لابسين

لباس النساء ليضربوا لهن على دفوف مربعة ويرتجلوا نظما حزينا مبكيا في رثاء الميت[15]. وتصيح النساء في آخر كل بيت منه، ويخدشن صدورهن وخدودهن حتى تسيل دما غزيرا، وينتفن شعورهن وهن مولولات نائحات[16]. ويدوم ذلك طوال سبعة أيام، وبعد أربعين يوما يستأنفن نحيهن لمدة ثلاثة أيام أخرى. تلك هي عادة العامة. أما الأعيان فحزنهم أخف، إذ يبكون موتاهم دون ندب ولا خدش، ولا يطبخون الطعام والميت في الدار[17] بل كان يأتيهم من الجيران. وفي بعض البوادي انتشرت عادة ***"التّعْداد"*** أثناء البكاء وهو عبارة عن كلام موزون تردده نائحات بالتناوب، بحيث ما أن تسكت النائحة حتى تبدأ أخرى، وهكذا دون توقف[18]. ومن بين الكلمات التي كانت ترددها النائحات: ***"ناري مّي ناري مّي أو ناري خُويَا ناري خويا أو ناري بّا ناري بّا ..." و"ربّ أشْيرحْم" و"راني راضية عليك" و"شْكون وصّيت عْليّ" و"أهْيا ربّي أهْيا لعزيز واش هاذْ المكتوبْ" و"ماتْ رزْقي" و"ما بْقاتْ لي عيشة" و"واش ندير بلا بيك"*** .... وغيرها من الكلمات التي تدل على حسرة أهل الميت وحزنهم وسخطهم، وتُذكر بخصال فقيدهم وصفاته أو تدعو له بالرحمة أو تكشف عن المآسي والصعوبات التي قد تلحق بأفراد أسرته في غيابه كما يخبرنا هذا المثل الشعبي: ***"عْلَ يَا مُوتا أُرَكْبه"*** أي أتمنى أن أموت وأعود لأرى كيف تعيشون من بعدي، أو تظهر ما كان مستترا من أموره ككثرة الديون وغيرها كما يخبرنا هذا المثل الشعبي :***"ملّي تَيْمُوتْ الميت، كَيطْوَلُو رَجْلِيه وَكَتْتعرّى سَفّاحْتُهُ"*** . وما أبلغ قول عبد الرحمان المجذوب في المآسي التي يعاني منها أهل الميت[19]:

مكتوب رب نودّيه *** والصبر واجب علينـا

والّي نْحبّه نْخليه *** يا ناس ما اعْتاها غْبينة. ومعناه أننا حينما نفقد أعز من نحب فهذا غبن كبير، لكن ذلك من قضاء الله ودواؤه هو الصبر مثلما يُلمح من المثل الشعبي :***"بابْ الصْبرْ ما عْليها بوّابْ، والّلي صْبْرْ ينالْ"*** .

إن طقوس وعادات البكاء تكشف عن الحزن العميق وعن الصدمة النفسية التي يعيشها أهل الميت كما يفهم من هذا المثل الشعبي :***"دْمُوعْ الْحُزْنْ حارّة، ودْمُوعْ الْفرْحْ بارْدة"*** . وقد ترك لنا الموروث الشعبي أمثالا وحكما حول البكاء على الميت من بينها: ***"لبْكا منْ وْرَا الميت خْساره"*** ، والذي يعني أن الإنسان يجب أن لا يندم على ما ضاع منه أو خسره لأن ذلك لن يعيده له. وأيضا: ***"الّلي ما يْبكي عْلي في حْياتي، يْوقّرْ دْمُوعُه لْموتي"*** ، وهو مثال يقال فيمن يظهر الأسى والحزن لرزء أصابك ولكنه لا ينفعك بشيء.

وإذا كان الجو حارا وكانت الوفاة في وقت متأخر من النهار وتعذر تجهيز الميت. فإن الدفن يؤجل إلى اليوم الموالي، وهو من علامات سعادة الميت في الثقافة الشعبية، فالمثل يقول: ***"سَعْداتْ لْميتْ الّلِ ماتْ أُبَاتْ"*** ، أي ما أسعد الميت الذي مات وبات مع أهله في منزله ولم يدفن إلى الغد. وتفاديا لتعفنه كانوا يضعون "على بطنه حديدة أو سكينا فإن لم يجد [يجدوا] فطينا مبلولا [مبللا] طاهرا لئلا يعلو فؤاده فيخشى أن يتفجر قبل حلوله في قبره "[20]. وقد حافظ السكان على هذه الطريقة إلى عهد قريب بحيث كانوا يضعون فوق بطن الميت الذي تأخر دفنه طَبَقا من التراب. وفي الليل كانوا يضيئون البيت الذي يبيت فيه المتوفى بشمعة أو سراج[21]. وفي بعض الأحيان يتم التعجيل بدفن الميت حتى وإن توفي في وقت متأخر من النهار(بعد صلاة العصر) تجنبا لتعفنه ولذلك لا يشيع جنازته إلا قليل من الناس فينطبق

عليه المثل الشعبي :*"بْحالْ ميت الْعاصرْ ما يدّي خْبارْ ما يْجِيبْ آخُورْ"* . العاصر: وقت صلاة العصر.

وبعد غسل الميت "يبخر الكفن ثلاثا أو خمسا أو سبعا..." [22]، ويتم وضع الكافور والطيب في أنف الميت وفي فمه و دبره[23]، وكذلك الحناء والمسك والعنبر وغيره من الطيب[24]، ثم يلبسونه الخرقة المعروفة ب *"محشرة"* لستر السوأتين، ولاعتقادهم أن الميت سيحشر بها يوم القيامة[25]، ويضعون القطن على وجهه وعلى ركبتيه وتحت حنكه ورقبته "حتى تصير رأسه وكتفاه بالسواء ثم يجعلون القطن كذلك عند ساقيه من ههنا حتى يصير بطنه وراسه ورِجْلاه بالسواء."[26]. وكان من عادة بعض أهل قبائل سوس أنهم يخرقون كفن الميت مما يقابل الأنف، لاعتقادهم أن الروح تدخل منه عند حضور الملكين لسؤاله في وقت العشاء[27]. وكان من عادة النساء في بعض المناطق غزل خيوط من الكتان في يوم عاشوراء ويحتفظن به لخياطة الكفن يوم الوفاة "لاعتقادهن أن منكرا ونكيرا لا يأتيان من كفنها مخيط بذلك الغزل"[28].

وكانوا يعتقدون أن الموتى يتفاخرون في قبورهم بالأكفان وحسنها ويعللون ذلك بأن من كان من الموتى في كفنه دناءة يعيبون عليه ذلك استنادا إلى ما يرونه في مناماتهم[29]، ولذلك كانت الأسر تحرص على أن يكون الكفن لائقا رغم أن الفقيرة منها كانت تعترضها في ذلك صعوبات كثيرة كما جاء في بعض الأمثال الشعبية: *"ما صابُوا باشْ إكَفْنُ الميت زَعْفُرُولُه فمُّه"* ، **أي** فقير معدم، و *"ماتْ مَا خلّى غِيرْ لَخْوَا وْخَيُّه، والْكَمُّوسة دَفْلِيُّو"* ، و *"عاشْ ماكْسبْ، ماتْ ما خلّى"* ، أي أنه لم يخلف شيئا من متاع الدنيا لأهله، و*"ماتْ امْبارْه، خلّى وزْنة كْبيرة: الكَنْبرِي*

والڤرڤبة، والطنجية دْ لحميرة" . امباره: لهجة عامية فاسية كانت تطلق قديما على العبد المملوك وأصله مبارك. الكنبري: آلة موسيقية شعبية. القرقبة: آلة موسيقية لطائفة كناوة جنوب المغرب. والمثل يقال في شخص مات ولم يخلف شيئا أو إرثا أو ترك إرثا قليلا. وهذه كلها أمثلة تكشف معاناة الأسر الفقيرة أثناء وفاة أحد أفرادها بحيث منها من كان لا يتوفر حتى على ثمن الكفن، وتخبرنا الرواية الشفوية في هذا الإطار أن الحلفاء كانت تعوض الثوب المخصص للكفن بحيث حينما يتم غسل الميت يُوضع في *"التّليس"* ثم يصلى عليه ويدفن وسط الحلفاء التي توضع كفراش وغطاء له في قبره.

وكان السكان أثناء الكفن يراقبون حركات الميت، فالرواية الشفوية تؤكد أن الميت إذا كفن ووضع أحد رجليه على الأخرى فإن ذلك معناه أن ميتا آخر من عائلته أو من معارفه أو من القبيلة سيتبعه عما قريب.

تتبع عملية التكفين بمراسيم ***"وداع الميت"*** حيث يأخذونه إلى "حضرة الرجال إن كان رجلا أو إلى النساء إن كانت امرأة"[30]. وقبل وضعه في النعش تتم مراسيم **التزكية** حيث يحضر "شخص يسمونه **ب** ***"المدير"*** فيزكي الميت على الله تعالى بمثل قوله السعيد الشهيد القاضي الصدر الرئيس الصالح العابد الخاشع الورع كهف الفقراء والمساكين وللمرأة السعيدة الشهيدة إلى غير ذلك من ألفاظهم المعهودة عندهم ..."[31]. والتزكية هي بمثابة شهادة تبرئة شفوية يتوسط بها المدير بين الميت وخالقه وتظهر كفاءاته وتعبد له الطريق للتغلب على صعوبات المراحل التي سيقطعها في حياته الأخرى وتعكس التصورات المختلفة حول القبر والحساب والجنة والنعيم والنار والعذاب...

وعند إخراجه لوضعه في النعش يختلط الجميع "فيقيمون الصيحة العظيمة"[32] لأن النعش هو راحلة لا ترد صاحبها كما يصور ذلك المثل الشعبي: ***"بْحال النعش يَدّ ما يْرِدْ"*** ، أي أن كل من يخرج من بيته محمولا في نعش فإنه لن يعود إليه أبدا.

تنتهي طقوس التجهيز بكتابة ***"العهد"*** للميت، وهو عبارة عن آيات من القرآن مثل "شهد الله أن لا إله إلا الله والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو"[33]، وأيضا "بسم الله الرحمان الرحيم"[34]، وأيضا "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله"[35]، وأيضا "كتاب مبين"[36]. وكانت هذه الآيات توضع في غلاف ***"جْعْبَةٍ"*** (أنبوب صغير) من حديد أو قصب وتوضع في كوة من القبر أو بين أكتاف الميت. وفي بعض الأقاليم توضع الآية الأولى على رأسه في داخل كفنه، والثانية بين قدميه حتى لا يفتن في قبره[37]. ويسمى العهد عند بعضهم ب***"الرقعة أو السؤال"*** [38].

إن مراسيم التزكية والعهد هي بمثابة إجازات شفوية وورقية (مكتوبة)، شبيهة لحد ما بصكوك الغفران، وتظهر التأثر بطقوس موجودة في ديانات وحضارات أجنبية، وبالتالي فإن المجتمع المغربي ظل منفتحا لكن دون أن يفقد هويته.

وفي انتظار خروج الجنازة. يفتح المسجد، إذا كان قريبا من بيت الميت، ويجلس فيه المعَزُّون.[39]

وهكذا نستخلص أن بعض طقوس وعادات تجهيز الميت تمتد في جذورها إلى ما قبل الإسلام وتمكنت من اختصار الفارق الزمني وحافظت على وجودها رغم التحولات التي عرفها المجتمع المغربي، وهو ما يدل على أن التراث المغربي مزيج بين الماضي والحاضر وأن القديم

سيظل حاضرا في حضارتنا مستقبلا لأنه جزء من هويتنا التي نسعى للحفاظ عليها عملا بالمثل الشعبي ***"جْدِيدْ تْهلّ فِيهْ، ولْقْدِيمْ لْتْفرّطْ فِيهْ"***. كما أن هذه الطقوس تكشف عن الترابط المتين الذي ميز الأسرة والمجتمع المغربيين منذ القدم والذي يعتبر أحد عوامل الاستقرار الاجتماعي والتقدم الاقتصادي.

2- طقوس وعادات الدفن: موكب الجنازة ودرب الوداع و"الفدا" وعشاء القبر.

بعد انتهاء مراسيم التجهيز يتم إخراج الميت في نعش خشبي، يحمله حمّالون يتلقون أجرا متفقا عليه قبل بدء عملية الغسل[40]، أو يُحمل فوق أعمدة مشدودة بالحبال تجرها الدواب، ولاسيما في البوادي، إذا كانت المقبرة بعيدة عن بيت الميت[41].

وكان الميت يُخرج في بعض المناطق بالزغاريد[42]، وفي وقتنا الحاضر تولول النساء عند إخراج الميت إذا توفي وهو أعزب صغير السن حسرة على ذلك متناسيات أن المثل الشعبي يقول: ***"مّا منْ خْرُوفْ سْبقْ بّاه لْلْكْرْنة"***: الكرنة لهجة عامية تعني المجزرة، والمثل يقال لمن يعتقد بأن الشيوخ وكبار السن هو السّبّاقين للموت، بل ***"الموت ما هي لا بْكْبير ولا بصْغِيرْ، واللّي وْفى أجْلُه كيْمدْ رجْلِيهْ"***، بمعنى أن الموت يرتبط بالأجل المحدد مسبقا للإنسان، وأيضا :**"الزّواجْ والمُوتْ همٌّ لا يْفُوتْ"** بمعنى أنه لا بد منهما لكل ذكر وأنثى.

وكان أهل الميت، إن كانوا أغنياء، يعملون على بسط الحصير على الطريق المؤدية إلى المسجد وإلى المقبرة ويُحضِرون ***"الحزّابين"*** (القُرّاء) للجلوس عليها وقراءة القرآن بطريقة تشبه الغناء[43]، ومقابل أجرة[44]، ولهذا قاطع البعض أمثال هؤلاء الحزّابين مثل عبد الواحد بن أحمد الأنصاري(ت.

1040هـ/1630- 31م) الذي قال :"أيها الناس إنما منعني من اصطناع الحزّابين لأنهم يفسدون قراءة القرآن فلم ينتبه الحزّابون لقوله ولا انتهى الناس عن اصطناعهم"[45].

يتقدم الجنازة مجموعة من الذاكرين يسمون ب***"الفقراء الذاكرين"*** "يذكرون أمام الجماعة على صوت واحد ويتصنعون في ذكرهم ويتكلفون به على طرق مختلفة كل طائفة لها طريق في الذكر"[46]. ومن أهم الكلمات التي يتم ترديدها في الجنازة: الهيللة جهرا مع الصلاة على النبي[47]، أو ***"يا الله، يا عزيز، يا رب"***، أو ***"يا عظيم يا ذا الجلال، يا الله يا الله، يا موصوف بالكمال، يا عزيز، يا وني"*** [48]، أو ***"رُوحْ رُوحْ أُمحَنْدْ أنِ قَاعْ سَرُّوحْ"*** بالنسبة لبعض الدواوير الأمازيغية المنعزلة [49]: *"روح"* ومعناه اذهب، *"أمحند"* معناه محمد وهو لفظ عامي يطلق على الرجل، *"أن قاع سروح"* ومعناه المكان الذي سنذهب إليه جميعا، والمقصود هنا هو القبر وما بعده. هذه الكلمات المستعملة في الذكر يستخلص منها التفاوت الذي ميز المجتمع المغربي بين البوادي والمدن وبين الأسر الغنية والفقيرة وبين العرب والأمازيغ من حيث المستوى الثقافي والوعي الديني وهو ما يدل على أن الحيز الجغرافي له دور كبير في "صناعة" الطقوس والعادات.

وتتذيل بعض النساء موكب الجنازة متبرجات بزينتهن، وبعضهن يتفرقن في طرقات حاملي النعش. فحينما يموت الرجل كانت تخرج معه في جنازته أمه وأخته وزوجته، ونساء من جيرانهن[50] بالصراخ والنياحة[51]، ومن كانت "منهن يعز عليها الميت تخرج في جنازته مكشوفة بغير رداء"[52]، هذا بالنسبة للعامة. أما الأعيان فقد جرت العادة أن لا تسير

النساء في مواكب جنائزهم، مهما كانت صلة قرابتهن بالهالك[53].

وبعد الصلاة على الميت يخرجون به إلى أن يصلوا إلى ***"درب الوداع"*** فيضعون النعش هناك ويقف ولي الميت بموضع والمدير ينادي أمامه في الناس أن يأتوا إلى التعزية وهو يردّد كلمات الإشادة والتزكية السابقة الذكر، و يأتي المعَزّون "واحدا بعد واحد والمدير يزكي ويثني على كل واحد منهم [...]"[54]. وقد يترك الميت في درب الوداع لبعض الوقت حيث يقوم الحاضرون بقراءة القرآن وبالذكر والتكبير. ويرجع معظم القراء والذاكرين والمكبرين من هذا الموضع[55]. ومن لم يدرك درب الوداع يعزي أقرباء الميت في المقبرة [56]. ومما كان يقال في التعزية :" ليس بك ابتدأ، ولا عليك اعتدى، مات سيد الهدى"[57]، و"لله ما أعطى ولله ما أخذ". وفي الموروث الشعبي يقال *:"**ربّ عطاه** **ربّ دّاه"* ، *"**بغاه الله ودّاه"*** ، *"**كاع غاد لحقوه"*** ، *"**البركة فْراسكْ"*** ، *"**البركة فالباقي"*** ، *"**عظم الله أجركم"*** ، *"**الله إعشّر الخطوات"*** ، *"**مْشا فينْ كاع نَمْشيوْ"*** ، وهي كلمات تدعو أهل الميت إلى الصبر، وتدل على المواساة والتضامن وعلى حتمية الموت. ورحم الله ابن عبد الحكم الذي قال في تعزية كتبها للشافعي في ميت له:

إنّ مُعزُّوك لا أنّا على ثقة *** من الحياة ولكن سنة الديـن

فلا المعزَّ بباق بعد صاحبه *** ولا المعزِّ ولئن عاش بعد حين[58].

وفي معناه أنشد بعضهم:

وما المال والأهلون إلا ودائع *** ولا بد يوما أن ترد الودائع[59].

وبعد مراسيم درب الوداع يتفرق المشيعون منهم من يعود إلى منزله ومنهم من يتبع الجنازة ماشيا ومنهم من يركب "فيسبقون الجنازة إلى القبر وتبقى الجنازة تجري(كذا) بها الحمالون ولا يشيعها إلا القليل من الناس"(60).

وبالسبة للدواوير أو المساكن المنعزلة التي لا تتوفر على مسجد، فإن الميت يجهز ويحمل مباشرة إلى المقبرة حيث يصلى عليه ويدفن.

ويختلف عدد الحاضرين في الجنازة حسب سمعة الميت ومركزه الاجتماعي: شريف أو ولي أو رجل صالح أو غني أو فقير أو شخصية لها نفوذ سياسي... وقد تنبهت الأمثال الشعبية للنفاق الذي ميز الحضور في الجنائز مثلما يظهر من المفهوم السطحي لهذين المثلين اللذين يحملان دلالات كثيرة :***"الجنازة كبيرة والميت فار"*** ، وأيضا :***"هذ الميت ما يسوى حتى اللي إسوّل عليه"*** .

وتعتبر عملية وضع الميت في القبر طقس عبور يفصل بين مرحلتين، وهي من أصعب اللحظات وأتعسها وأشدها كرها عند الإنسان كما صور لنا هذا المثل الشعبي :***"العِيشَة بين الصْفيحة والْمسْمارْ ولا غَمّةُ الأقْبارْ"*** . الصفيحة هي صفيحة الخيل، والمسار المقصود به المسار الذي يشد الصفيحة في حافر الحصان. أي أن الإنسان يفضل أن يعيش فقيرا على أن يموت ويردم في القبر ، ولكن ومن وجهة نظر الثقافة الشعبية دائما، فإن القبر يعتبر سترا وراحة للإنسان حينما يصبح عاجزا صحيا وعالة على غيره كما يفهم من هذين المثلين :***"لَقْبرْ سترَا، أو لَقْبرْ راحة"*** ، وأيضا :***"اللَّحْية ما تْهزْ اللَّحْية غِيرْ اللّقْبَرْ"*** . وبذلك فالعوز المادي كان يعتبر أحد عوامل تمني الموت في الثقافة الشعبية المغربية :***"اللِي خْطاهْ دْيالُه، يْتعرّى في حْياتُه ومُوتُه خِيرْ منْ حْياتُه***، وانتشار ظاهرة الانتحار في المجتمع المغربي(61).

وجرت العادة عند بعض الناس أن يفرشوا القبر بالرمال خاصة إذا كان حجرا صلبا، والبعض منهم كانوا يضعون تحت الميت ***"الطرّاحة"*** وعند رأسه الوسادة لوقايته من التراب، مما يدل على إيمانهم بعودة الروح إلى الميت وعلى أن هناك حياة أخرى تنتظره. ثم يزيلون عنه الخرقة (محشرة) ويخرجون القطن الذي كان قد وضع في فمه فتخرج المواد مع ذلك ويبقى فمه مفتوحا. وفي بعض المناطق كانوا يملئون عيني الميت بالتراب "ويقولون عند ذلك لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب"[62] كما يشير إلى ذلك المثل الشعبي :***"شُوفْتْ الْعِينْ كْبِيرة، ما يْعمّرْها غِيرْ الدُّودْ والتْرابْ"*** ، وذلك امتثالا لقوله تعالى :**"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ"**[63] لأن الإنسان لا يشبع من ملذات الدنيا وزينتها حتى وإن كان على فراش الموت كما يدل على ذلك هذا المثل الشعبي:***"تَيْمُوتْ وعْيُنُهْ في الْحُوتْ"*** . وبذلك فإن وضع التراب في عيني الميت هي إشارة إلى انتهاء ملذات الدنيا وانتقاله إلى مرحلة جديدة ترتبط ملذاتها بما قدمه من أعمال الخير كما يخبرنا هذا المثل :***"عزّ الدنيا الْمالْ وعزّ الآخرة الأعمال"*** . وكانوا يضعون ترابا أو حجرا خلف ظهره في قبره حتى لا يميل على وجهه، ثم يرشون القبر بماء الورد[64]، اعتقادا منهم أن ذلك يؤدي إلى تخفيض حرارته، لأن من خصائص ماء الورد امتصاص الحرارة. وعند الانتهاء من الدفن يلقّنون الميت بأصوات مرتفعة حيث ينادونه باسمه ويذكّرونه بأنه في قبره وعليه أن يركز في جوابه على سؤال الملكين[65]، ثم يجمعون التبرعات لأهل الميت، لاسيما الفقراء منهم، وهو ما كان يطلق عليه ***"الفداء"*** [66]. أما الأغنياء فكانوا يصحبون معهم في مواكب الجنائز الخرفان والخبز في أقفاص، وبعد الانتهاء من عملية الدفن يذبحون تلك الخرفان

ويوزعونها والخبز على الفقراء الحاضرين في الجنازة، "ويقع بسبب ذلك مزاحمة وضرب ويأخذ ذلك من لا يستحقه ويحرمه المستحق في الغالب"[67]، وتسمى هذه العملية ب***"عشاء القبر"*** [68]. وجرت العادة أن لا يأكل أهل الميت إلا بعد الإفراغ من الدفن[69]. وقد تنبهت الأمثال الشعبية إلى ما كان يصيبهم من تعب شديد فدعت إلى مساعدتهم والتخفيف من هول مصابهم كما يفهم من هذا المثل :***"عَتْقُوا الحيين أعِبَادْ الله"*** .

وكانت القبور تُحفر من قبل الحفارين مقابل أجرة [70]، وحسب قياس الميت كما يشير إلى ذلك المثل الشعبي الاتي :***"بْقَى لِيهْ غِيرْ الفاسْ ولْقْياسْ"*** : أي الفأس للحفر وقياس طول وعرض القبر. كما كانت متشابهة من حيث شكلها مع بعض الاختلافات البسيطة بين المناطق وبين البوادي والمدن.

ففي بعض المناطق كانت ضيقة في الأعلى وبطول الميت أو أقل في أسفلها[71]، وفي مناطق أخرى كانت متسعة في الأعلى وضيقة في الأسفل ولا يتعدى عرضها شبرا واحدا كما يتضح من هذا المقطع الغنائي :***"يا حفّارْ قبْري دِيرْ لي شبْرين***خلّ الزّينْ إمَدْ لي لِدِينْ"*** ، وهو مقطع يلتمس فيه صاحبه ممن سيحفر قبره أن يوسع في عرضه بمقدار شبرين عوض شبر واحد حتى يتمكن من مد يده لمعشوقه. وفي بعض الأقاليم كان يتم تسقيم القبر وتربيعه والبناء عليه[72]، وفي مناطق أخرى كان الميت يدفن في ***"الفسقية"*** وهي عبارة عن قاعة كبيرة تحت الأرض يُفرش فيها تحت الميت ***"طرّاحة"*** أو ***"قطيفة"*** أو غيرهما ويُوضع تحت رأسه وسادة ويُغطّى كأنه مضطجع في بيته ويُعطَّرُ بأنواع **المشموم** (العطور) كالياسمين والريحان وغيرهما، ويُوقدُ بجانبه الشمع ثم يُغلق الباب. وكانت عادة الدفن في الفسقية تقتصر على بعض أفراد الأسر

الغنية، وحتى بعض أفراد الأسر المتوسطة والفقيرة بعد وصية منهم. وكانت الفسقية تبلط وتبيض، وقد تعرض البعض منها للحرق بفعل الشموع التي كانت تشعل فيها، كما كانت مأوى للصوص[73].

وبعد الانتهاء من الدفن كان بعض الناس يقومون بغرز عود (عمود) على القبر ويجعلونه واقفا إلى السماء، يزعمون أنه يخفف على الميت عذاب القبر[74]، بينما كان البعض الآخر يحيطون القبر بأشواك السدر أو أنواع أخرى من النباتات الشوكية لحمايته من الحيوانات المفترسة، كالضباع والكلاب الضالة، ولمنع عزرائيل من الدخول إلى القبر حسب اعتقادهم[75].

وكان بعضهم يضع على القبر ألواحا من الخشب ودرابزين، وينقش عليه اسم الميت، وسور بعض الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى واسم النبي، كما كانوا يعلقون القنديل على قبر من كان مشهورا بالخير ليأتي الناس إلى مكان الضوء فيزورونه تمينا بالحج[76]، إضافة إلى وضع الفساطيط على القبور وتبييضها [77] وتزيينها بالذهب والصور[78]، وتغطيتها بالثوب كما يفهم من هذا البيت الشعري: تحلية القبر وكسوة الحرير*** للصالحين ومصابيح تنير[79]، ونصب الخيام وإشعال الشموع عليها ليلا [80] وغرس شجرة أو صبار أو ريحان بجوارها أو نباتات فوقها[81].

وإذا كان الميت امرأة ولها طفل صغير أو رضيع كان من عادة الناس أن يأخذوا كمية من تراب قبرها ويضعونه في كاس ماء ثم يقدمونه للطفل ليشربه اعتقادا منهم أن ذلك ينسيه ألم فراق أمه.

3- طقوس وعادات ما بعد الدفن: التعازي وعشاء الميت وصبيحة القبر والحزن.

بعد الانتهاء من الدفن يتفرق المشيعون ولا يدخل أهل الفقيد البيت "حتى يغسلوا أطرافهم من أثر الميت"[82]، ثم تنطلق مراسيم ***"عشاء الميت"*** التي تمتد لثلاثة أيام يتم خلالها تهييئ بعض الأطعمة والأشربة مثل ***"التلبينة"***، التي تذهب الحزن حسب اعتقادهم، وهي أكلة خفيفة اكثر سيلانا من الحريرة تصنع من دقيق أبيض مع الزيت والشيرج أو غيرهما من الدهون، و كانت تقدم للمعزين قبل الطعام. ولا يرفع مائدة الطعام خلال الليالي الثلاث إلا الذي وضعها[83]. وجرت العادة أن لا يأكلوا السمك والملوخية ما داموا في الحزن لأنها "مجمعة الأحباب فإذا أكلوها تذكروا بها ميتهم فيتجدد عليهم الحزن"[84]، كما لا يأكل ولي الميت مع جماعته ما دام حزينا على ميته حتى ينقضي حزنه. وفي اليوم السابع[85] وبعد مضي شهر وعند حلول الذكرى السنوية الأولى بعد الوفاة. يقيم أهل الميت عشاء للأهل والجيران ولمعارفهم، "ويحضرون قراء القرآن والفُقرا والمؤذنين الذين يكبرون كتكبير العيد والمهللون يهللون"[86] مع ما يرافق ذلك من تبذير وإسراف، وكأن لسان الحال يقول :***"المُوتْ والرْزيّة"*** أو ***"الموت والوخْضَة"***: "الرزية" هي المصيبة و"الوخضة" هي الخسارة. أي أنه بالإضافة إلى المصيبة هناك الخسارة المادية التي ترافق الموت.

وكانوا يوقدون السراج أو القنديل في الموضع الذي مات فيه الميت ثلاث ليال من غروب الشمس إلى طلوعها[87]، وعند آخرين سبعة ليال[88]، وبعضهم كانوا يفعلون ذلك كذلك في المكان الذي غسل فيه الميت ، كما كانوا يضعون فيه قطعة خبز

وماء ثلاثة ليال بعد موته، وبعضهم كانوا يضعون بجانب السراج حجرا. وكانوا لا يغسلون ثياب الميت إلا في اليوم الثالث ويقولون أن ذلك يرد عنه عذاب القبر[89]، ولا يُخمّلون (يجمعون) الفراش الذي فرش في بيت الميت لاستقبال المعزّين حتى تمضي سبعة أيام[90]، وما كان من الماء في البيت في زير أو غيره لا ينتفعون به ويطرحونه لاعتقادهم أنه نجس ويعللون ذلك بأن روح الميت إذا طلعت غطست فيه. ومن حضر مع الميت عند خروج روحه لا يعمل شغلا حتى تمضي عليه سبعة أيام[91]، وأكثر من هذا كان البعض من الناس من عائلة الميت يتركون الصلاة ليوم أو يومين ومنهم من يتركها لشهر أو شهرين[92].

وكانت النساء تلتزمن البكاء أربع مرات في اليوم: صباحا وظهرا وعند الغروب وبعد صلاة العشاء[93]، ومن جاءت منهن لتعزي تدخل لدار العزاء "بالويل والثبور واللطم على الخدود وتخميش الوجوه وتتلقاها النوائح على ما يعهد من فعلهن الذميم ويتكلفن إذ ذاك رفع أصواتهن فإذا وصلن إلى أهل الميت قمن إلى لقائهن وفعلن معهن كفعلهن ويعملن كذلك ساعة ثم كذلك ثم كذلك مع كل من أتى إليهن من النساء للتعزية ويبقين على ذلك مدة على قدر ما ينقطع معارفهن ويفعلن مع ذلك أفعالا قبيحة شنيعة تتنزه الأقلام عن كتبها والألسن عن النطق بها [...] لأن ذلك يختلف باختلاف عوائد البلاد والأقاليم ..." [94]، بل إن بعض المعزيات كان بكاؤهن أكثر من بكاء أهل الميت كما يفهم من هذا المثل الشعبي :***"مّالِيْنْ دّارْ صَبْرُوا ولَمْعزْيِنْ كَفْرُوا"*** . ولم يكن هناك وقت محدد للتعازي ولذلك كان بإمكان الشخص البعيد أو الذي لم يسمع نبأ الوفاة أن يعزي

وقتما تيسر له ذلك استنادا إلى المثل الشعبي :***"لَعْزا مَا كَيشْرَفْ***.

وفي الطريق إلى التعزية يحرص المعزي على عدم زيارة أي شخص أثناء خروجه إلى دار العزاء بسبب الاعتقاد بأن أقدام المعزي تحمل معها الحزن إلى مكان آخر، ويصل الأمر عند البعض إلى رفض استقبال شخص وهو في طريقه إلى دار العزاء.

وكان حزن النساء يمتد لسنة كاملة لا يخضبن فيها بالحناء ولا يلبسن الثياب ولا يتحلين ولا يدخلن الحمام، وتسمى هذه العادة ب ***"لوْقارْ"*** في الثقافة الشعبية المغربية. وبعد انقضاء السنة يعدن إلى "النقش والكتابة والغش[...] فيبادرن إلى فعل ذلك هن ومن التزم الحزن معهن ويسمون ذلك ***ب "فك الحزن"*** ويقع لهن اجتماع حتى كأنه فرح متجدد عند جميعهن"[95]، وبذلك ينطبق عليهن المثل الشعبي :***"صَبَّتْ وصْحَاتْ"*** والذي يعني أن قضاء الله لا رادّ له، كموت شخص مثلا أو غير ذلك من أحداث الدهر ومصائبه، فالميت يحزن الأهل عليه ثم لا يلبث أن ينتهي الأمر وينسى، فتكون هذه الحالة شبيهة بالأمطار تنزل لمدة معينة ثم تصحو السماء.

ومن العادات التي كانت معروفة، وحافظت على وجودها إلى يومنا هذا، "**صبيحة القبر**"، حيث يزور أهل الميت وأقاربهم وبعض معارفهم قبر فقيدهم في اليوم الموالي من الدفن مع "فرش البسط وغيرها في التربة لمن يأتي إلى الصبحة"[96]. وبعد ذلك تتم زيارة قبر الميت مرة واحة في الأسبوع لاعتقادهم "أن الميت إذا لم يخرج إلى زيارته ليلة الجمعة بقي خاطره مكسورا بين الموتى"[97]، كما تتم زيارته في الأعياد الدينية[98] (عيد الفطر وعيد الأضحى ويوم عاشوراء). ومن عادة بعض النساء أثناء الزيارة أن يركبن على الدواب وهن

مزينات بأنواع الحلي والملابس[99] بل كانت زيارتهن في بعض الأحيان ليلا وهن متبرجات مع انفراد البعض منهن بالرجا في" الخلوات والدور المتيسرة"، وانشغال البعض منهن بالضحك والغناء[100]. وكان بعض حملة القرآن يستغلون جهل الزوار وخصصوا لأنفسهم كراسي ومنابر يجلسون عليها في وسط المقابر للوعظ والإرشاد في الليالي االتي يكون فيها القمر بدرا كما يخبرنا ابن الحاج "... وينضاف إلى ذلك ما أحدثوه من الوعاظ على المنابر والكراسي والمحدثين من القصاص بين المقابر في الليالي المقمرة وغيرها واجتماع الرجال والنساء جميعا مختلطين"[101]. وقد وضعت النساء جدولة زمنية لزيارة القبور "فجعلن يوم الاثنين للسيد الحسين رضي الله عنه ويوم الثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة ويوم الخميس والجمعة للقرافة لزيارة الشافعي وغيره ولأمواتهن"[102]. وقد ترك لنا الموروث الشعبي أمثلة ومقاطع غنائية تدل على الترغيب في زيارة القبر من ذلك مثلا :***"مَلّي دفْنُوهْ ما زارُوهْ"***

وأيضا: ***"أمّي لالّ آنْسِيتُنِي *** آفْتُوا عْلَى قَبْرِي أُزُورُونِي"*** : المثل الأول كناية على من لم يزرك مدة طويلة، أما الثاني فزيادة على ما جاء في المثل الأول. فإن صاحبه يتمنى أن يموت حتى تتم زيارته. وكانوا يزعمون أن الميت يراهم إذا خرجوا من سور البلد. وفي بعض المناطق تمتد الزيارة من مساء يوم الخميس إلى صباح يوم السبت.[103] وأثناء الزيارة كانت المرأة تبكي بصوت مرتفع، أمام قبر زوجها، وتجتمع عليها النساء فيبكين بالصراخ العالي[104].

وتخبرنا بعض المصادر ببعض العادات التي انتشرت بعد الانتهاء من مراسيم العزاء وهي تسابق الرجال على الزواج من زوجة الهالك من دون استشارتها، وأحيانا رغما عنها. فقد ذكر الولالي أن "من مات له قريب وترك امرأة، بادر إلى ذبح تيس

بصدر خيمتها، فيكون بذلك أحق بها، كرها منها، ويقول: تركها لي التيس. ومنها إنه إذا دفن قريبه وحفر له بالفأس، كان أحق بامرأته، ويقول: تركها لي الفأس ..."[105].

وكان بعض السكان بعد الانتها من مراسيم الدفن والتعازي سيكنون بالقرب من قبر الميت لبعض الوقت، وقد يبنون فوقه[106] لأن ذلك يخفف من وحدة الميت ويجعله يستأنس تدريجيا مع مكانه الجديد حسب اعتقادهم.

خلاصة.

إن الموت شبح مخيف يتهدد الفرد باستمرار ويلازم مخياله، ولذلك ترك بصماته واضحة في الذاكرة الشعبية المغربية التي عبرت عنه بأمثال وحكم وحِجاجٍ، وحتى بأغاني وكلمات الزجل وبحكايات شعبية مخيفة وهزلية تعبر عن الحزن والغضب، وعن تصوراتهم حول مصير الميت في القبر وحول الحساب والعقاب والجنة والنار...، وعن الصراعات والتفاوتات الاجتماعية سواء بين الفقراء والأغنياء أو بين المدن والبوادي أو بين إقليم وآخر أو بين شعب وآخر. كما أن الموت يرتبط في المفهوم الشعبي المغربي بمتناقضات عديدة كالغنى والفقر، والشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والأنفة أو العزة والمذلة، وحسن وسوء التدبير، والمروءة والغش والنفاق ونكران الجميل، والتضامن والتكافل... وكل هذه التصورات والدلالات ظلت تجر معها تاريخا ثقيلا مليئا بالأحداث والعبر التي تعتبر كمرجع في التسيير والتدبير الفردي والجماعي، وفي تنظيم العلاقات الأسرية والعائلية وبين أفراد المجتمع. وفيما يلي بعض ما تتداوله الذاكرة الشعبية المغربية حول طقوس وعادات الموت والتي توضح الدلالات والمتناقضات السالفة الذكر:

"لَجْنازة كْبيرة والميت فاز"، و"يَقّتْلُ الميت أُيَحّضْرُ لَجْنازْتُ"، و "واش إقول الميت قدّام غسّالوُ"، و "كِي مزُلوطْ اليهود، لا دنيا لا آخرة"، و "إكْفْنُو الميت

أيشّطْحُوا في جْنازْتُه" ، و "جْنازة بْلَا طَلْبَة" ، و "زُوجْ لْتحقّقْ فيهم كْثِيرْ: الشمس والموت" ، و "شِي ماتْ ما خلّى وشِي خلّى وْراهْ معركة كبيرة" ، و "أشْ إقدّكْ ما نْطبّكْ والأرض كْتحبّكْ" ، و "آشْ عنْدْ لْمُوتْ ما تْنضّي منْ الدار الخالية" ، و "عاشْ ماكْسبْ ماتْ ما خلّى" ، و "فِيْنْ فْلانْ عزُّونِي فِيه" ، و "الموتْ ولا الْمذلة" ، و "اللّي فاتْ ماتْ" ، و"الله يرحم لْقْبُورْ وما خلّى" ، و"الحمد لله اللّي ماكيْقُوموشِي الموتى منْ مْواضعهم" ، و"اللّي مات عْلى شبْعة لهْلا يْكعّدْ لِيهْ راسْ" ، و "اللّي ما حسْ بْدْوايرْ الزمان يْمُوتْ ما عنْدهْ صْحابْ" ، و "ما عرْفُهْ باشْ ماتْ غِيرْ عزّ وْجا يْباتْ" ، و "ماتتْ لحْمارة انقطْعتْ الزيارة" ، و "ما سْمعْ غيرْ الله يرحم الله يرحم" ، و"مُوته مُوته، حُوته حُوته، مقْلّية في زْويتهْ" ، و "ما ماتْ ما طْلقْ كْفنْ يْتباعْ" ، و "مدُّهْ إمُوتْ، كاتبْ كاغِطْ لعْدمْ" ، و "مسْكين مْشى يْبيدُّه عْلى قلْبُه" ، و "واحدْ كيْمُوتْ بالبرْدْ وْهُما كيْرشُّوهْ بْما وزْدْ" ، و "هذا مُوتُه خِيرْ منْ حْياتُه" ، و "هذْ الميت ما يسْوى حتّى اللّي إسوّلْ عْليه" ، و "هذاكْ اللّي بْغا إعزّي فالميت يدّيهْ معاهْ" ، و "يْعزّي وهو ما عارفْ اللّي ماتْ ، و "الْمُوتى ماكيْغيْرُوا ريْهُمْ" ، و "لحْمقْ هو اللّي كيْعِيشْ فقير باشْ يْمُوتْ غني" ، و"تحْتْ كْراهْ يْمُوتْ" ... إضافة إلى ما تم ذكره سابقا في هاته المقالة.

وقد نسج المخيال الشعبي المغربي حكايات عديدة حول الموت من بينها هاته التي تحكى أن رجلا غنيا وبخيلا توفي ولما حضر الحزّابون لإحياء ليلة عشائه لم يقدم لهم أي طعام. ولما طال انتظارهم سأل أحدهم عن سبب وفاة هذا الميت، فأجابه آخر قائلا: أما زلت تسأل عن سبب وفاته؟ لقد كان ذلك بسبب الجوع.

الحكاية الثانية ترتبط بالمثل الشعبي :"***اللّي وْفى أجْلُه كيْمدْ رِجْلُهْ، ما عنْدْ عمّي قْجلّة ما يعْملُّه***" . وراء هذا المثل خرافة، وهي أن يهوديا كان يدعى "قْجلّة" في القديم كان يكتب التمائم للمغفلين ممن وضعوا ثقتهم في ترهاته وأباطيله وشعوذته، فلما شاع الخبر إلى والي المدينة وحاكمها استدعاه وسأله عما يكتبه للناس، فوجد تلك العبارة التي سارت مثلا

شعبيا يضرب لكل من يؤمن بالشعوذة والتداوي بها من سُذّاج الناس وبُلهائهم.

الحكاية الثلثة ترتبط بالمثل الشعبي :"**مْرضْ وماتْ**". وراء المثل أيضا قصة خرافية موجزها أن زوجا كان كلما حضر الأكل يسأل زوجته: بم توفي أبوك؟ فكانت تحكي له وهي تبكي، وما أن تنتهي حتى تجده قد أتى على الطعام بكامله. ولما اعتادت منه ذلك وصار يسألها عن موت أبيها، بدأت تختصر له الحديث بقولها له :"مْرضْ وماتْ" وتابعت أكلها على المائدة فلم يعد يسألها.

ومجمل القول فإن طقوس وعادات الموت عملت على ترسيخ مظاهر التكافل الاجتماعي وتمتين الترابط بين الأسر من جهة وبين أفراد المجتمع المغربي بصفة عامة منذ القدم مما قلص من التفاوتات التي ميزت المجتمع المغربي بين الأسر الغنية والفقيرة وقرب الصلات فيما بينها وساهم في التخفيف من آثارها النفسية والمادية ووفر بذلك أحد عوامل الاستقرار الاجتماعي والتقدم الاقتصادي.

ومن جهة أخرى فإن طقوس وعادات الموت، المرتبطة بالاعتقادات والأفعال وبالسلوك والتوجيهات، تكشف عن التفاوت الذي ميز المجتمع المغربي بين البوادي والمدن وبين العرب والأمازيغ، وبقية الأعراق، من حيث المستوى الثقافي والوعي والممارسة الدينيين وهو ما يدل على أن الحيز الجغرافي بمعطياته ومستوياته المادية وخصائصه الطبيعية له دور كبير في بلورة تراث معين، لكنها في النهاية تشكل جزءا من الهوية المغربية وتحقق التجانس الاجتماعي. كما أن هذه الطقوس والعادات تعكس التصورات التي ترسخت في الذهنية المغربية منذ القدم والتي تمتد إلى فترة ما قبل الإسلام وغذتها روافد أجنبية من ديانات وحضارات مختلفة. وبذلك فإن المجتمع المغربي ظل منفتحا لكن دون أن يفقد هويته. وقد ترك هذا المزيج بصمات قوية في الحضارة المغربية إلى يومنا هذا مما يدل على أن درجة تطور المجتمع المغربي ظلت بطيئة.

وأخيرا فإن طقوس وعادات الموت نابعة من ثقافة المجتمع التي تستمد أصولها وضوابطها من أصول

فكرية معينة تطورت عبر الزمان منذ القدم وحتى يومنا هذا وأصبحت أحد فروع الحضارة المغربية والإنسانية التي تحافظ على هوية المجتمع.

الهوامش

(1)- أبو عيسى سيدي المهدي الوزاني(ت.1342هـ/ 1923م): النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسمى ب"المعيار الجامع المعرب عن فتاوي المتأخرين من علماء المغرب". قابله وصححه الأستاذ: عمر بن عباد، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة 1417هـ/1996، ج 2، ص:42.

(2)- ابن الحاج محمد العبدري الفاسي(ت. 737هـ/1336-37م): المدخل إلى تنمية الأعمال، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت، ج 3. ص: 229.

(3)- م.ن، ج 3. ص: 235.

(4)- المهدي الوزاني، النوازل، م.س، ج 2، ص: 21.

(5)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 246.

(6)- م.ن، المكان نفسه.

(7)- المهدي الوزاني، النوازل، م.س، ج 2، ص:42.

(8)- ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 245.

(9)- م.ن، ج 3، ص: 248.

(10)- تحكي الرواية الشفوية أن الماء الذي غسل به الميت كان السحرة والمشعوذون من النساء والرجال يستعملونه للتداوي من بعض الأمراض ولوضع عقد وطلاسم سحرية لمن يُراد به سوءا.

(11)- قال صلى الله عليه وسلم :"ليس منا من حلق وخرق ودلق سلق" ومعناه حلق الشعر وخرق الثياب وخمش الوجه وضرب على الخدين وتلفظ بالكلام القبيح. ابن الحاج ، المدخل، ج 3. ص: 233.

(12)- الهبطي عبد الله بن محمد الصنهاجي (ت.963هـ/1556م): الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية. إعداد وتقديم: محمد ستيتو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، ط 1، مطبعة شمس، وجدة 1997، ص: 41-42.

(13)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 233-234.

(14)- م. ن، ج 3. ص: 234.

(15)- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ق9هـ/15م): وصف إفريقيا. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 1983، جزآن، ج 1، ص: 201-202.

(16)- م. ن، ص: 201-202. وتنظر أيضا: أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي.(ت.841هـ/1438م): فتاوى البرزلي المسمى جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام.

تقديم وتحقيق: الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2002، ج 4، ص: 435.

(17)- الوزان، م. س، ج 1، ص: 201-202.

(18)- رواية شفوية.

(19)- عبد الرحمان بن عياد المجذوب (ت.976هـ/1569م): القول المأثور من كلام سيدي عبد الرحمان المجذوب، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص: 54.

(20)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 235.

(21)- م. ن، ج 3. ص: 236.

(22)- م. ن، والمكان نفسه.

(23)- م. ن، ج 3. ص: 240.

(24)- المهدي الوزاني، النوازل، م. س، ج 2، ص:18.

(25)- م. ن، ج 2، ص:42.

(26)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 242.

(27)- أكبيل محمد بن علي السوسي الإنذزالي (ت. 1162هـ/1748- 49م): تنبيه الإخوان فيما هو بدعة وما هو سنة (أرجوزة)، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط عدد د 321، (ض. م)، صص: 55- 56.

(28)- ابن الحاج، م. س، ج 1ص 291.

(29)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(30)- م. ن، ج 3. ص: 247.

(31)- م. ن، ج 3. ص: 248.

(32)- م. ن، ج 3. ص: 246

(33)- سورة آل عمران، الآية 18.

(34)- سورة النمل، الآية 30.

(35)- سورة الأنعام، الآية 59.

(36)- سورة الشعراء، الآية 2 ، والقصص رقم 2، والدخان رقم 2، والزخرف رقم 2، ويوسف رقم 1.

(37)- المهدي الوزاني، النوازل ،م. س، ج 2، ص: 54.

(38)- م. ن، ج 2، ص:55.

(39)- ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 249.

(40)- م. ن، ج 3، ص: 247.

(41)- رواية شفوية.

(42)- البرزلي، م. س،ج 1، ص: 508.

(43)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 249.

(44)- الزياتي عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الغماري (ت.1055هـ/1645م): الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، عدد د1698، ص: 7.

(45)- محمد الصغير اليفرني (ت.1155هـ/1742م): صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ ، ص: 59.

(46)- ابن الحاج ، المدخل، ج 3، ص: 250.

(47)- أكبيل، تنبيه، م. س، ص: 55.

(48)- اليفرني ، صفوة م. س، ص:93.

(49)- رواية شفوية.

(50)- المهدي الوزاني، النوازل، م. س، ج 2، ص:41.

(51)- م. ن ، ج 2، ص:42.

(52)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 277.

(53)- الوزان، م. س، ج 1، ص: 201-202.

(54)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 254.

(55)- م. ن، ج 3. ص: 255.

(56)- المهدي الوزاني، النوازل، م. س، ج 2، ص:38.

(57)- البرزلي، فتاوى، م. س، ج 1، ص: 510 .

(58)- م. ن، والمكان نفسه.

(59)- م. ن، والمكان نعسه.

(60)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 255.

(61) . تخبرنا المصادر أنه في مجاعة 1603. 1606م ألقى الناس بأنفسهم في الآبار، ومنهم من ذبحوا أنفسهم بالمدى، وقتل الآباء والأمهات أولادهم والرضع منهم. Vagda _ George ; Un recueil de textes judéo-marocains. 1ère partie, Hespéris, 3-4 trimestre, t.XXXV, 1948 , p. 236-237.

.

(62)- م. ن، ج 3، صص: 260.261.

(63)- سورة النور، الآية 30.

(64)- ابن الحاج، م. س، ج 3. ص:261. 262.

(65)- من، ج 3. ص: 265.

(66)- أكبيل، تنبيه، م. س، صص: 55- 57.

(67)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. صص:266-267.

(68)- م. ن، والمكان نفسه.

(69)- م. ن، ج 3. ص: 276.

(70)- م. ن، ج 3. ص: 257

(71)- م. ن، ج 3. ص: 259.

(72)- البرزلي، فتاوى، م. س، ج 1، صص: 508-515.

(73)- ابن الحاج، م. س، ج 3، صص: 268. 272.

(74)- أكبيل، تنبيه، م. س، ص: 56.

(75)- رواية شفوية.

(76)- ابن الحاج، م. س، ج 3، صص: 272. 273.

(77)- البرزلي، فتاوى، م. س، ج 1، ص:515.

(78)- ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 274.

(79)- محمد بن أبي القاسم السجلماسي (ت. 1241هـ/ 1799-1800م): شرح العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي، مخطوط المكتبة الوطنية رقم 28602/1، معجم المطبوعات 101002. الرباط – المغرب ،ص: 176 أو صفحة: كثير.

(80)- ابن الحاج، م. س، ج 3. ص: 278.

(81)- م. ن، ج 3، ص: 280.

(82)- م. ن، ج 3. ص: 276.

(83)- م. ن، ج 3. صص:275. 276.

(84)- م. ن، ج 3. ص: 281.

(85)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(86)- الزياتي، الجواهر المختارة، م. س، ص: 7.

(87)- ابن الحاج، م. س، ج 3. ص: 276.

(88)- الزياتي، الجواهر المختارة، م. س، ص: 7. وأيضا: المهدي الوزاني، النوازل، م. س، ج 2، ص:50.

(89)- ابن الحاج، المدخل، ج 3. ص: 276.

(90)- م. ن، ج 3. ص: 279-280.

(91)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(92)- م. ن، ج 3. ص: 233-234.

(93)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(94)- م. ن، ج 3. ص: 235.

(95)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(96)- م. ن، ج 3. ص: 277-278.

(97)- م. ن، ج 3. ص: 277.

(98)- المهدي، الوزاني، النوازل، م. س، ج 2، ص:27.

(99)- ابن الحاج، المدخل، م. س، ج 1. ص: 283 وما بعدها.

(100)- م. ن، ج 1. ص: 266.

(101)- م. ن، ج 1. ص: 268.

(102)- م. ن، والمكان نفسه.

(103)- م. ن، ج 1. ص: 269.

(104)- م. ن، ج 2، ص:241.

(105)- الولالي أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب (1128هـ/1717م): مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار. دراسة وتحقيق: عبد العزيز بوعصاب، ط 1، منشورا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999، ص:239.

(106)- ابن الحاج، المدخل، م. س، ج 3. ص: 279.

المصادر والمراجع

_ القرآن الكريم برواية ورش.

_ أبو عيسى سيدي المهدي الوزاني(ت.1342هـ/1923م): النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسمى ب"المعيار الجامع المعرب عن فتاوي المتأخرين من علماء المغرب". قابله وصححه الأستاذ: عمر بن عباد، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة 1417هـ/1996، ج 2.

_ابن الحاج محمد العبدري الفاسي(ت. 737هـ/1336-37م): المدخل إلى تنمية الأعمال، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت، ج 3.

_ الهبطي عبد الله بن محمد الصنهاجي (ت.963هـ/1556م): الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية. إعداد وتقديم: محمد ستيتو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، ط 1، مطبعة شمس، وجدة 1997.

_ الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ق9هـ/15م): وصف إفريقيا. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 1983، جزآن، ج 1.

_ أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي.(ت.841هـ/1438م): فتاوى البرزلي المسمى جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام. تقديم وتحقيق: الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2002، ج 4.

_ عبد الرحمان بن عياد المجذوب (ت.976هـ/1569م): القول المأثور من كلام سيدي عبد الرحمان المجذوب، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دون تاريخ.

_ أكبيل محمد بن علي السوسي الإنذزالي (ت. 1162هـ/1748- 49م): تنبيه الإخوان فيما هو بدعة وما هو سنة (أرجوزة)، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط عدد د 321.

_ الزياتي عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الغماري (ت.1055هـ/1645م): الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، عدد د1698.

_ محمد الصغير اليفرني (ت.1155هـ/1742م): صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ .

_ محمد بن أبي القاسم السجلماسي (ت. 1241هـ/1799-1800م): شرح العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي، مخطوط المكتبة الوطنية رقم 28602/1، معجم المطبوعات 101002. الرباط – المغرب .

_ الولالي أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب (1128هـ/1717م): مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار. دراسة وتحقيق: عبد العزيز بوعصاب، ط 1، منشورا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999، ص:239.

_ Vagda George ; Un recueil de textes judéo-marocains. 1ère partie, Hespéris,

3-4 trimestre, t.XXXV, 1948.

ـ رواية شفوية.